

الاستعارات التي نحيا بها تصوّر رمضان حمود بين الإبداع والنقد

The Metaphors We Live By: The Embodiment of Ramadan Hamoud Between Creativity and Criticism

د/ وردة بالي

warda BALI

المدرسة العليا للأساتذة – ورقلة

مخبر الوسائط التعليمية

bali.warda@ens-ouargla.dz

تاريخ القبول: 2026/01/07

تاريخ الإرسال: 2025/09/14

الملخص:

أولى "رمضان حمود" مفهوم الشعر أهمية بالغة. فالشعر عنده تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس، لا دخل للوزن والقافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال، وقد أثار هذا المفهوم جدلا كبيرا بين النقاد، هل الشعر عنده مجرد إبداع أو هو محاولة تأسيس مفهوم نقدي أو غير ذلك. وفي هذا المقال سعي نحو تبیین التجديد عند "رمضان حمود" بغية إبراز بعض القضايا النقدية، كمادة مكثفة تبرز توجهه وتصوره في هذا الفضاء الإبداعي والفكري، هذا الأخير جعلنا نقف عند التصورات النقدية التي تميز بها رمضان حمود عن معاصريه.

فباللغة الشعرية في نظره هي التي لا ترتبط بعلم الشعر، على اعتبار هذا الأخير لا يوظف اللغة العادية التي تعتمد على الوصف المباشر، بل ترتبط بالمجازات والاستعارات التي تمثل انزياح المعنى في القصائد، التي ستكون من الممكن نظريا الاعتماد عليها لقياس شاعريته كيفما كانت وكذا تصنيفه في خانة تصورات الناقد، وللبحث في حيثيات هذا الموضوع تروم مداخلتنا إبراز أهمية وإبراز إبداع الشاعر وإذ نبوأ مكانة نقدية في ساحة النقد الجزائري باعتبارها جدوة منقذة في الأدب الجزائري إذ جسد ارتحالا من الإبداع الشعري إلى التصور النقدي.

ومن هنا السؤال الرئيس المؤسس لمداخلتنا هو: كيف صور رمضان حمود الشعر وكيف تشكلت الهندسة النقدية بوصفها نسقا مضمرا حقق خصوصيته الشاعرية؟ وما أبرز القضايا النقدية التي خاض فيها؟ وما أبرز المستجدات التي طرحها نقديا؟

للإجابة على الإشكال السابق اتبعنا أدوات المنهج الفني كونها تتفاعل مع القراءة النقدية ونقد النقد، وبالتالي تساهم في تجلي مرامي هذه ورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: أدب جزائري؛ نقد؛ رمضان حمود؛ شعر؛ إبداع.

Abstract:

Ramadan Hamoud gave great importance to the concept of poetry. For him, poetry is an electric current centered in the soul, and a gentle imagination thrown out by the self. Meter and rhyme have nothing to do with its essence; their ultimate purpose is merely verbal improvements required by taste and beauty.

This concept sparked great controversy among critics. Was poetry, for him, merely creativity, an attempt to establish a critical concept, or something else?

In this article, we seek to clarify Ramadan Hamoud's innovative approach, aiming to highlight some critical issues as intensive material that illuminates his orientation and vision in this creative and intellectual judgment. The latter (referring to his judgment/vision) prompted us to examine the critical concepts that distinguished Ramadan Hamoud from his contemporaries.

In his view, poetic language is not linked to the 'science of poetry,' given that the former does not employ ordinary language that relies on direct description, but is linked to rhetorical images with metaphors and similes that represent the poetic spirit. It would be theoretically possible to rely on this.

Hence, the main question that underlies our intervention is: How did he portray poetry, and how was critical engineering formed as a means of achieving his poetic specificity?

Key words: Algerian literature; Ramadan Hamoud's criticism; poetry; creativity.

مقدمة:

إن انبعاث الحركة النقدية في الجزائر، تفتق عنها موروث أدبي واسع يحتاج إلى تنقيب وتفكيك وتحليل، وللكشف عن أبرز القضايا النقدية والفنية. ولعل قضية التجديد أبرزها من ناحية بعث الموروث القريب منا في هذا العصر الحديث، لإلقاء الأضواء على موضوع الذي نحسبه بكرة، ارتأينا الخوض في تصور "رمضان حمود" الإبداعي والنقدي.

لا مرأ في أن المتتبع لمراحل تطور الشعر الجزائري، يلاحظ أنه حاول التأريخ للهوية الجزائرية والانتماء العربي والمغاربي، في ظل تسرب مرحلة الأدب الكولونيالي، الذي ارتبط في مجمله بما خلفه الاستعمار الفرنسي آنذاك، غير أن حضور الشعر الجزائري المتمثل في نزعة قديمة أو تجديدية يجعلنا نقسمه إلى مرحلتين:

مرحلة شعر عربي يعترف بالوزن والقافية، ومرحلة شعر معاش للظروف، أقل ما يقل عنها تجديدية، كسرت ما تحسبه قيد وقدمت ما يؤرخ لها ولتطورها، حيث تختلف كلتا المرحلتين عن بعضهما، كان يحاول شاعرنا في الأولى ذكر ما هو انتماء عربي، وفي الثانية كخصوصية تؤرخ للبيئة الجزائرية.

ولا نبالغ إذا ذهبنا إلى القول أن "رمضان حمود" أتى بفكرة لم تكن منتشرة في عصره، بل تجاوزها إلى التأسيس، فلم يكن اختيارنا له اعتباطاً، فقد كان له السبق في طرح فكرة التجديد، وكان أبرز قياداتها، ولا يمكن أن نتكلم عن فكرة التجديد بجل استعارتها قبل أن نخرج عن شخص الشاعر والناقد رمضان حمود.

1- رمضان حمود وسيرته الأدبية:

لقد تم إدراك أن الشاعر ابن بيئته ويحمل في ذهنه ثقافة إنسانية، تنطلق من الفكر الذي عايشه لتصل للتراث العريق الغني بالإبداع. الذي تنتوع فيه التجارب التي تنقله من شاعر إلى ناقد متذوق للفن ولمعرفة أهم المحطات الإبداعية والنقدية عند "رمضان حمود"، نستبق الوقوف عند شخص، هذا الرجل هو حمود بن سليمان لقب برمضان، ولد يوم 10 رمضان سنة 1324هـ -

1906 في غرداية (ميزاب) في بيئة محافظة يقول فيها: "بلغت السادسة من عمري فأخذني والدي إلى مدينة غليزان حيث قرأت القرآن الكريم واللغة الفرنسية"، التحق بإحدى المدارس الفرنسية وقد شهد له بالذكاء والنبوغ منذ الصغر، وهو ما جعل معلميه يخصونه بالمحبة والعطف، ولما رأى والد حمود ما عليه التعليم في الجزائر من ضياع وعقم وما رآه من ولده من استعداد وطموح، قرر أن يبعثه إلى تونس.

ويقول أيضا: "عمدتي وأستاذي الشيخ إبراهيم أطفيش والشيخ محمد الثميني ولا أنسى ما أخذت عن هذين الأستاذين المحسنين من أخلاق وآداب وما نفخا في روعي من وطنية. سافر إلى تونس 1922م، درس علم الخط العربي وتلقى بعض الدروس في مبادئ العلوم الطبيعية من: جغرافيا وتاريخ وهندسة وحساب، وحصل على قواعد نفسية في العلوم العربية من: نحو وصرف ومنطق، ودرس علوم الطبيعة بأسرها، ثم تقدم بعد ذلك إلى الجامع الأعظم (جامع الزيتونة)"⁽¹⁾.
أثاره الأدبية:

❖ الفتى: محاولة قصصية تروي سيرته الذاتية سنة 1929.

❖ بذور الحياة: خواطر فلسفية تروي سيرته الذاتية.

❖ مجموعة مقالات ودراسات أدبية ، واجتماعية موزعة بين جرائد كالشهاب ، ووادي ميزاب ، مثل العادات الفاسدة، الإسلام في القرن 20.

قصائده:

- أيها العرب والخطوب الجسام.

- الحرية.

- دمة على الأمة.

- في السجن.

- شعبي الكئيب.

- الرجل بنفسه.

- يا قلبي.

خصص الدكتور "محمد ناصر الآراء النقدية، عند "رمضان حمود" من زاوية أنه أول بذرة للتجديد كانت على يده "1906-1929 بقصيدته (يا قلبي). التي نشرها في العدد (96) من جريدة وادي ميزاب في (10/08/1928) والتي يقول فيها:

ويلاه من هم يذيب جوانحي فكأنما في القلب جذوة نار⁽²⁾

لقد اهتم الدكتور محمد ناصر والدكتور صالح خرفي اهتماما كبيرا بالرجل في أدبيات تعاملت مع التعريف وتقريب كمشروع يحتاج اكتشاف، فركز الأول على حياته وأهم أرائه وأبرز نقاط التجديد، أما الثاني فكان يشير إلى حياته بطريقة موجزة، لم يكن كتابهما المعنونان برمضان حمود سوى مجال تقريب، إلا أن الجدير بالذكر أن كلاهما أشاد بإسهامات جريدة وادي ميزاب في فتح أبوابها واتساع صفحاتها للمبدعين الصغار دون تجاوز.

رغم ندرة المعطيات المتعلقة بحياة رمضان حمود، فإن أغلب المراجع تتفق في كون الشاعر زواج بين الاتجاه الإصلاحي والوجداني في الجزائر.

إن ثقافة الشاعر مستمدة من تنوع حضاري بين التراث العربي القديم والانفتاح على الثقافة الغربية التي جعلت آراءه النقدية تزخر بالاستعارات، والمقصود بها في هذه الورقة البحثية أنه أفصح عن التصور النقدي بتوظيف استعارات من واقعنا دون إغفال للقرينة المعنوية بينها، فقد اعتدنا على هذا التوظيف فيما هو أدب، وبالتالي أغفلت تجربة الشاعر النقدية المتمثلة في آرائه التي ضربت المعيارية إلى الجمع بين النقد والفنية.

2- مفهوم الشعر عند رمضان حمود:

بعد الشعر جذوة متقدة يسافر بالشاعر والمتلقي عبر مشاعر وأحاسيس حاملة في طياتها جوانب مختلفة؛ تتنوع بين الضمير الذاتي والضمير الجمعي للشعوب من وطنية وحس قومي، ومشاعر حياتية وغيرها، لم يتنكر رمضان حمود للتراث القديم، لكنه لا يقّسه، بل يؤمن بأن ما يصلح لفترة سابقة لا يصلح بالضرورة للفترة الراهنة، كما يؤمن بأن الصيرورة والتطور هما قانون الحياة، وأن الركود رديف الموت، وأن الإبداع ليس حكراً على جيل دون آخر⁽³⁾.

فيعرف "رمضان حمود" الشعر بقوله: " الشعر تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس، لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة ولا ملوحة، وإنما حفظ وصيانة من التلاشي والسيلان"⁽⁴⁾. إن المتمعن في هذا المفهوم يلاحظ بشكل بارز ارتباطه بالاتجاه الرومانسي، الذي يركز على الخيال والعاطفة" هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ في هذا المفهوم تصريحاً مباشراً بتشابه الشعر والنثر، أي أن القلب الشعري المتمثل في الوزن والقافية ليس بمقياس.

ومما لا شك فيه أن الشعر يرتبط بالشعور الذاتي أو الوطني، وما نجم عنه من شعور قومي وإنساني صادق يجمع بين عدة مشاعر، فهو بمفهومه السابق أحدث ضجة وتحولا كبيرا في ضرورة إعادة النظر في مفهوم الشعر، من ناحية الشكل والزخرف اللفظي، وركز على الصدق الفني الذي يبرز من خلال التأثير في المتلقي. وبالتالي مدى تأثيره على البيئة الاجتماعية التي أنتج في سياقها هذا الشعر.

ينهي رمضان حمود مفهومه بضرورة التمييز بين الشعر والنثر، كون الإحساس لا يتعلق بهدم الشكل بل، هو حالة شعورية تشبه الصعق الكهربائي في تأثيره أو الوحي في العجز عن تفسيره فيقول: "قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى ولو كان خاليا من معنى بليغ وروح جذابة، وأن الكلام المنثور ليس بشعر، ولو كان أعذب من ماء الزلال وأطيب من التلال... وهذا ظن فاسد، إن الشعر كما قال شالين هو النطق بالحقيقة تلك الحقيقة العميقة يشعر بها القلب والشاعر الصادق قريب من الوحي"⁽⁵⁾.

بفضل هذه النظرة الجديدة في مرحلة سيطرة إصلاحية، استطاع الشاعر الجمع بين التصورات العربية والغربية، ومن ثمة ساهم بكل ما يملك من وعي فكري ووسائل فنية متاحة في تقديم وعي جديد، يدعو إلى ضرورة ولادة كيان شعري جديد دون تردد.

بعد قراءة متأنية لمفهوم الشعر، نرى أنها مثلت طموح شاب في مقتبل العمر كسر القيود ليستطعم الحرية بأوسع معانيها، وقد جسدت هذه الرغبة، شخصية ملهمة مشبعة بتعاليم الدين الإسلامي واطلاعه على الفكر الغربي خاصة الرومنسية، من خلال تأكيده على ضرورة مواكبة العصر رغم الصراع بين الثقافة الإصلاحية ورفضها لكل ما هو غربي إلا أن "رمضان حمود" حاول لفت انتباه القارئ لموضوع هام، يتعلق بموقف إبداعي ثوري تأثري، هذا الموقف يدخل ضمن الواقعية النقدية التي رسمت وعيا يتنبأ بالمستقبل – آنذاك- ظهور الشعر الحر، ومن ثمة قصيدة النثر في الشعر العربي الحديث.

من هذا المنطلق كان الشاعر حريصا على المزاجية بين الإبداع والنقد، وخاصة أن الثورة الثقافية التي كانت الأمل الذي يساوره نحو الأفق المتفائلة بالمستقبل التقدمي الجديد رغم العقبات الخارجية التي شكلتها معازل الظلام والاستبداد الفكري، وذلك كإشارة وثيقة للتكامل بين التصورات الفكرية وخلفياتها، وانعكاساتها النفسية الوجدانية التي تؤثر في المتلقي من الناحية الجمالية والنفسية.

يقول عن الحرية موظفا معجما وجدانيا:

لا تلمني في حبها وهواها
لست أختار ما حبيت سواها
هي عيني ومهجتي وضميري
أن روحي وما إليه فداها
إن عمري ضحية لأراها⁽⁶⁾

وظف الشاعر معجما وجدانيا رومانسيا، يشير إلى مشاعر الحب، لكن المتمعن في العنوان والظروف السياسية، يستنتج أن الشاعر له نظرة تتجه نحو الروح الوطنية والاستقلال المنشود⁽⁷⁾.

3- التجديد فكرة:

يقدم لنا الشاعر في مادة شعرية مفعمة بالتعالقات الروحية تجعل النص الشعري نصا مشحونا بالمشاعر بدرجة أولى، يأبى أن يكون ضمن خانة الميراث القديم عمود الشعر، فضمير الشاعر رمضان حمود ضمير تهيم عليه الشخصية المجددة التي تمنح الشعر مميزات مركزية الروح كفلسفة وتأثير الكهرباء القوي الخفي "الشعر تيار كهربائي" تجعله قريبا من التأثير من وجهتين؛ الأولى الطاقة الكامنة التي تؤثر في الشاعر إنتاجا والمتلقي إعجابا، كيف لا وحضارة الأضواء وليدة الكهرباء. وهذا تصريح ضمني على التأثر بالثقافة الغربية، ينعكس هذا بشكل واضح عند الشاعر الذي درس في مدارس قرآنية ومدارس فرنسية، وقد أخذ هذا الأخير عدة تكوينات، ولعل أبرزها التكوين الزيتوني في تونس، إلا أن هذا لا ينفي وجود بعض الاجتهادات

التي توصل إليها الشاعر في مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول إبداعه الشعري وتصويراته النقدية، إذ يجمع بين كتابة الشعر والمفهوم النقدي الذي يبين لنا صدق التجربة الفنية والاجتهاد النقدي الذي اتضح من خلال ما جاء به من خوض في القضايا النقدية بين مفهوم للشعر وقضية التجديد والحث على الالتزام بقضايا الوطن وبالحس القومي.

فكان قد اشترط في تحديده لمفهوم الشعر تحقق صفتين أساسيتين هما:

- 1- أن يكون من يكتب الشعر شاعرا "مركزه الروح".
- 2- أن يكتب بأسلوب المعايش لعصره بكسر لصنم الأوزان والقوافي الذي يجعل "لا دخل للوزن والقافية في ماهيته".

وبالتالي الدارس لشعر "رمضان حمود" يجد أن أغلبه قد تحقق فيه الشرطان المذكوران أنفاً، فإن الشعر الذي لا يلامس مشاعر القارئ وشغف العصر لا يعد شعرا حسب تصويره.

فالشاعر حسب رمضان حمود مبدع صادق، وهذا شيء نسبي بدرجات متفاوتة بأن يترجموا مشاعرهم بأسلوب أدبي تعبيرى فني وإبداعي، موسوم في كثير من الأحيان بالصدق ومعايشة العصر، والتي تأخذ حيزا واسعا في قضية القديم والجديد، وكما هو معلوم أن هذه الأخيرة تحوي الكثير من المواضيع التي ظهرت في العصر الحديث، إلا أن شاعرنا ذكرها في فترة يعد السباق في طرحه، وهي فترة العشرينيات من القرن العشرين والتي كانت مفعمة بكثير من القيود بين ضغط الاستعمار سياسيا وسيطرة الاتجاه الإصلاحى ثقافيا وأدبيا، كونه ورث الأوزان والقوافي للأجيال التي زامنت وجوده.

فكانت رؤية رمضان حمود تتضمن التأويل، فصدم بتصويراته القبلية المشرق قبل المغرب كيف لا وهو الذي وجه لأحمد شوقي نقدا لاذعا، وهنا نجد جرأة رغم السن الصغير والتجربة الفنية، فالتصورات النقدية عنده محملة بكثير من التأويلات والتفسيرات العالقة في ذهنه، والتي مررها باستعارات، جعلت أفكاره تستدعي الوقوف له في عصرنا هذا، إذ مرر الكثير من تصوراته وآرائه وكذا الرسائل المشفرة- التي نعدها استعارات - خصوصا إن كان هناك ما يمنع ذلك في فترة معاشته.

4- التجديد مشروع:

المعلوم أن الخطاب الشعري عند "رمضان حمود" يتداخل بين الإبداعي الذاتي (التجربة الشعرية) وتصورات النقد وقضايا كبعد واقعي (العصر الذي عايشه) وكل هذا شكل عملية انصهار داخل أطر فن الشعر والقراءة النقدية، التي يمتزج فيها الفن الشعري بالتصور النقدي، وهذا ما سنحاول إبرازه في دراستنا.

ومما لا شك فيه أن التجديد له جملة من الدوافع على مر العصور، وقد تطرق إلى هذه النقطة العديد من النقاد والدارسين فهو "لا يريدك أن تسيء الظن بعواطفه نحو أجداده وتراثهم ولا يرضى منك أن تفسر دعوته إلى التجديد تفسير العقوق للماضي... ليس التجديد آلة نهدم بها ما بنته أسلافنا، لكنه قوة غير متناهية نرمم بها الماضي، ونمهد بها المستقبل"⁽⁸⁾.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن "رمضان حمود" حاول الجمع بطريقة توفيقية بين تراثنا العربي القديم وبين تجربته الحياتية المعيشية، التي اطلع من خلالها على الموروث الغربي، كيف لا وهو المتمكن من الترجمة كما ذكرنا في سيرته أنفاً.

والجدير بالذكر أن "رمضان حمود" متشبع بتعاليم الدين الإسلامي. وهذا جلي في جل أعماله التي قد تميز بها، فقد شغل مكانة مهمة في الأدب الجزائري الحديث، كونه شكل توأمة مع شقيقه في الوطن المغاربي؛ الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي، فكلاهما أراد الحياة بصفة تجديدية لها مخاض التجديد والالتزام.

قبل الخوض في غمار التصورات النقدية، لابد من التنويه إلى أن رمضان حمود عرض مقاصده من خلال رفضه التام للوزن والقافية (لا دخل للوزن والقافية في ماهيته)، وعملية الرفض هذه متكررة في كثير من النقاط في كتابه بذور الحياة، والغاية منها تنبيه القارئ للفائدة المتوخاة من عرضه لمحتوى بالاستعارات كأسلوب تكثيف، كأداة مركزة، تكشف تصوراته الفكرية والثقافية والنفسية.

أما الجانب الفني فيمكن في تجربته التي تجاوز الوزن والقافية، كونها خرق للقيمة الحقيقية في الفن، ويرى أن جوهر العمل الفني يظهر مع الصدق في الإحساس والتعبير، تماشياً مع ما تقتضيه متطلبات الظروف السياسية في الجزائر، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن إتقانه للترجمة وتأثره بالشعراء مغاربة وغربيين جعله يتساءل عن مناهج الدراسة حتى ونقاط الاختلاف بين العرب لا على الشعراء في الجزائر، فمهمة الشاعر التأثير والتنقيف لا مهمة نقل، وينبني حكمه هذا على جملة من الأسباب نلخصها فيما يلي:

ظهور التجديد في البيئة الجزائرية المحلية كسابقة دون انتظار موافقة عربية، يشكل توجهها متخلفاً، كان له كل التأثير على المسار الفني والنقدي رغم ما عاشته الجزائر من ظروف صعبة في تلك الفترة.

إن، وبناءً على ما سبق ذكره: فلولا تركيز الشاعر على تصويره التجديدي، لكان من الممكن أن تبقى الجزائر في التقليد الموروث، فالناقد حاول تصوير الوضع بجانب المتلقي، بحيث أن الشاعر لا يسجل كلمة واحدة دون مراعاة المتلقي. وبالمجمل فإن رمضان حمود في جل تصوراته كان مستقيضاً في ضرورة إدراج البيئة المحلية الجزائرية التي عمل فيها على استعارة التعايش أن يشير الشاعر للواقع ويلتزم به، هذه التصورات ساهمت في تدليل الطريق للمتلقي وإثارة اهتمامه لفكرة الانتقال من الضمير الذاتي، إلى الضمير الجمعي الذي فرضته ظروف طبيعية، عاشتها جل المجتمعات الإنسانية كوضع استعجالي يلح على الالتزام.

5- الشعر والتزام:

أنشاء محاولة "رمضان حمود" تحديد معالم فكر الجزائري، ذهب إلى إدراج تصوراته ضمن الاتجاه الإنساني كضمير جمعي يوثق المعاناة الجماعية التي تجعل من الإنسانية تتساوى أمام الخوف والاضطراب، فانطلق من الأدب إلى الحياة الاجتماعية، ومن ثمة إلى للإنسانية من

خلال رصد أفاقها والمشاركة في تعميق علاقاتها فيما بينها، فالتوجه النقدي عنده يمثل خليطاً من الأبعاد بحيث لا تجد جدولة محددة بل تجد نظرة شاملة.

والأكيد أن تصورات رمضان حمود غطت أكبر مساحة ممكنة من الإنتاج الشعري التجديدي وبالأخص في الجزائر، غير أن هذه التغطية انطلقت أساساً بشكل مبكر كفكرة، وتأخرت في الاعتراف.

منذ البدايات الأولى للاتجاه الإصلاحي، كان الشاعر يعتبر ممثلاً لتجديد بعد تمكن متحدثاً به، لا هروبا من شبك الوزن والقافية عجزاً.

تكمن الاستعارات في مدى قدرته على تصوير الواقع، بأفكار تحمل الجمالية والشاعرية، وبالتالي قدم ردة فعل، مفادها لا تقتصر مهمة الشاعر على نقل المشاعر للمتلقي، سواء كانت ذاتية أم وطنية، بل تتجاوز ذلك إلى إمكانية أن ينتج الشاعر تصورات نقدية، تنص على التغيير في الوضع الثقافي والأدبي، في قالب فني، يحمل مضامين فنية.

لقد طرق رمضان حمود الحداثة بعدة أوجه، منها المباشر والضمني، وقد تجلى ذلك شعريا من خلال تعدد البحور التي نظم بها الشعر، فقد نوع بين القوافي، مستلهما من الموشح وعمود الشعر، وبالتالي أقام كسرا لعمود الشعر المتوارث، كما لفت النظر إلى أنه من أوائل المجهودات في العصر الحديث التي لم تلق احتضانا على الصعيد الجزائري والعربي، باستثناء بعض اللبنات لعل أبرزها مجهود الدكتور صالح خرفي والدكتور محمد ناصر، والتي حملت العنوان نفسه رمضان حمود.

شكلت قضية المحافظة والتجديد حلقة صراع في الفكر النقدي الحديث، وعليه امتدت جذور هذه القضية التي تتكرر مع كل عصر، إلى الإقليم الجزائري، مصطلح الوجداني الذي استمد روحه من تجديد

ما يلفت الانتباه في آراء "رمضان حمود" هو تهكمه من الشعر القديم لغاية إبداع شعر حي ناتج عن روح العصر، ويصور الحياة؛ أي من ناحية التجربة الشعرية أو التجربة الفنية لدفع عجلة النقد بشكل ديناميكي فعال يواصل قائلا: "فيا أيها الأدباء اجعلوا نصب أعينكم أعلاء الأدب العربي وترقيته، وأفهموا واعتقدوا أن موقفنا مع أجدادنا الكرام كموقف الأم الحنون مع ولدها...، فإن لكل جيل أدب مخصوص به، لا ينبغي للجيل الذي يأتي من بعده أن يقلده فيه، فحياة الأمس غير حياة اليوم، وحياة اليوم غير حياة الغد"⁽⁹⁾.

وبهذه الآراء يتجه نحو مدرستي الديوان والمهجر من ناحية أفكارها التجديدية، مما جعل "رمضان حمود" يوجه نقده بشكل مباشر إلى رائد المدرسة التقليدية "أحمد شوقي". الذي كان في هذه الأثناء يشكل، لذا فطموح هذه الورقة البحثية هو الوقوف عند مفهوم الشعر عند "رمضان حمود" الجزائري، الذي أبدع الشعر وتذوقه، والذي استعار فيه مفردات، جعلت من مفهومه حيا في زمانه وزمن الشعر الحر كيف لا؛ وهو الذي أجزم أن التأثير في المتلقي لن يحصل إلا إذا توفرت له المصادقية الكافية، والتي توفرها تجربة الشاعر ولاسيما الشعرية لأنها تعتبر مكونا أساسيا من مكوناتها.

لقد استعار رمضان حمود طاقة ترميزية تحيلنا إلى البيئة الإبداعية التي تستقطب المبدع فينير الطريق، كما تفعل الكهرباء، رغم إدراكه لطاقتها الخفية الكامنة، وكذلك من خلال تركيزه على الإحياء، وارتباطا بالحضارة الغربية يساهم في رسم صورة تتلاحم في تأثير الشعر ومدى تأثير الكهرباء، بشكل يتلاءم مع قوة التأثير.

إن الإبداعات بمختلف أشكالها، هي الإشارة إلى بعض المشاعر أو التصورات حسب كل مبدع ولربما أعمال رمضان حمود أرّخت لفترة تجديدية في الجزائر، منها على سبيل المثال لا الحصر، قصيدة "يا قلبي"، وغيرها من الأعمال الأدبية الخالدة، والتي من خلالها نستحضر الظروف الصعبة التي مرت بها الجزائر في مواجهة المستعمر.

ولعل تأثير الاستعمار على الصعيد الثقافي رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة، امتد إلى عصرنا الحالي خاصة أثره على اللغة العربية؛ إذ أجبر الجزائري على تغيير لغة تواصله اليومي وحتى لغة الفن الأدبي، بالخصوص كل ما يمت بصلة إلى مقومات هويته، وعليه كان من الضروري أن يحافظ الجزائري على هويته، وفي الوقت نفسه يواكب الإبداع الأدبي الحديث بكل مستجداته المشرقية، هذه المستجدات التي غاص في تفاصيلها وتداعياتها المبدع كرسائل مباشرة أو مشفرة تشير إلى مصير الوطن.

وبالتالي يقرب للقارئ الالتزام بقضايا وطنه في أسلوب شاعري مثير، يكسب المتلقي مناعة - آنذاك - من تأثيرات الثقافة الغربية السلبية من انسلاخ كلي واستلاب.

في هذا السياق، يأتي الالتزام عند الشاعر، لبحث عن تجنيد كل القوى للدفاع عن الوطن ومحاربة العدو بكل السبل، إلى مناقشة قضية الالتزام، وآثارها الضاربة في الروح الوطنية يستدعي بالضرورة الحس القومي، بالإضافة إلى الحديث عن التراث وتقاليد المجتمع الجزائري وخصائصه المحلية المميزة له، دون أن ينسى تعاليم الدين الإسلامي.

إن من أهم المحاور التي ركز عليها رمضان حمود هو محور الالتزام كونه الأساس المشترك بين ما هو اجتماعي وذاتي، وحتى سياسي من ناحية القواعد أو المبادئ، التي ينبغي أن يقوم عليها أي عمل فني أو إبداعي، يلامس مجال النقد، حيث يجمع بين الناحية النظرية والناحية التطبيقية.

وهكذا فإننا بعد أن تطرقنا إلى مفهوم النقد والتجديد والالتزام، ولكي نتضح أكثر صورة هذا الناقد، ارتأينا أن نركز على المعالم التي ميزت التجربة النقدية، من خلال رصد أهم الإشارات التي تعد إرهابات للشعر الحر و قصيدة النثر خاصة أن رمضان حمود قد ضمن أعماله الأدبية كل ما هو ثورة والتزام، وعمل على استنطاق التراث مع إدراكه تطعيم تراثنا بما هو غربي وفق ما يتماشى مع دين ومعتقدات وحياة الشعوب، وتزيد أهمية هذا الطرح إذا عرفنا أن الشاعر الناقد قد واجه تحديات عدة، لعل أبرزها سيطرة الاتجاه الإصلاحية، والذي وجه له مطلباً ملحا في ضرورة مواكبة الشعر الجزائري الحديث للنهضة عن نهج قادر، يجمع بين الأنساق الاجتماعية والثقافية والوجدانية.

إن فكرة الالتزام فكرة ضاربة في أعماق القدم، كيف لا والمبدع ابن بيئته، والشاعر يمثل قبيلته من خلال شعره، إلا أن مصطلح الالتزام ظهر بشكل جلي مع التطور الفكري الحديث الذي أعطى لهذا المصطلح مفهوما مغايرا مختلفا عن الفلسفة العربية من ناحية البيئة والرؤية والعوامل، إلا أن الالتزام ارتبط بالمجتمع كتطور تاريخي ومعرفي وعليه ما مفهومه؟ وما انتمائه المنهجي؟ وما مدى التزام الأديب أو الشاعر في إنتاجه؟ وكيف استجلى مفهوم الالتزام في المقالات النقدية في مدونة الدراسة؟

والحقيقة أن الالتزام نابع عن انسجام مشاعر وعواطف الشاعر ومجتمعه، حيث يعيش الأديب والشاعر مشاكل وآلام وآمال مجتمعه لتحقيق الحرية واستعادة الاستقلال، أي ينطلق من مشاعر الواقع. أما عن تمظهر الالتزام كقضية نقدية من العصر الحديث عند رمضان حمود فقد انصب اهتمامه على آلام وآمال الشعب يقول:

كم من ليلة بتها والله يشهد لي *** مفكرا في مصير القوم إذ هجعوا

ترى يراعي على القرطاس معتكفا *** يزود عن حوضهم حيناً ويخترع⁽¹⁰⁾

والالتزام ميزة شاملة في الأدب الجزائري الحديث، فهو قضية يذوب فيها الضمير الفردي في الضمير الجمعي فالشعر الذي لا يحرك نفوس العامة، ولا يذكرها بواجبها المقدس، ووطنها المفدى، فهو خيانة كبرى⁽¹¹⁾ وبالتالي يشترك المواطن والأديب والشاعر والقاص وحتى كاتب المقالات، يفرح لفرح أمته ويبكي لبكائها، وعلى الرغم مما ذكرناه في الجانب النظري حول أزمة النقد الجزائري من خلال قلة الممارسات النقدية إلا أن وقفنا مع مفهوم الشعر والتجديد والالتزام عند رمضان حمود، جعلنا نقر بوجوب ضرورة فحص الإنتاج الأدبي الجزائري، المرتكز في أساسه على الصحافة بما فيها من صحافة أدبية.

كما أن إطلاق العلامة عبد الحميد بن باديس لقب فقيد الأدب عليه بعد نعيه بمجلة الشهاب، ليس من قبيل الصدفة، بل اعترافا بمجهوداته في سبيل النهوض بالأدب والنقد الجزائري⁽¹²⁾.

وهكذا، يتبين لنا أن رمضان حمود لم يكن مشاركا في المشهد الإبداعي الثقافي الجزائري بل كان فاعلا فيه بصفة خاصة، انطلاقا من رؤية تصوراته الإيديولوجية إلى الممارسة النقدية.

تمثل رحلة رمضان حمود على قصرها رحلة طويلة أدبيا تروم البحث عن مستويات متعددة، شملت الوطن والمجتمع والأدب، ومن ثم فقد اندرج رمضان حمود في خانة النقاد على ما قدمه من طروح وقضايا نقدية، طبعت حياته بطابع الثورة الدائمة على القيم الرجعية الموروثة - الشعر كلام موزون مقفى- ما جعله يعيش صراعا شائكا، بين التجديد الإبداعي والالتزام النقدي.

خاتمة:

ليس من السهل الإلمام بكل ما جاء به رمضان حمود، فتصوراته كثيرة، لا نبالغ إذ اعتبرناها تأسيسية في مجال النظرة التجديدية السابقة لعصر الشعر الحر، فالرجل صاحب فضل في مشروع التجديد؛ محليا وعربيا رغم صغر سنه، فقد اقترح مشروعا فكريا جديدا، وفي ختام دراستنا البحثية لموضوع هذه الدراسة فإنه توصلنا إلى مجموعة من النتائج، أبرزها ما يلي:

❖ يعد مصطلح الشعر مصطلحا قديما تداول، موجودا مع وجود البشرية انتشارا وتفشيا.

- ❖ طرحت إسهامات رمضان حمود أفكارا وتصورات عديدة؛ جمعت بين اللغة المقاومة والتجديد في قالب الشعري والطرح النقدي.
- ❖ استفاد رمضان حمود من الثقافة العربية والغربية بطريقة تيسر فهم التعدد والاختلاف.
- ❖ يتشكل التصور النقدي مع أي فكرة تشمل الأدب، وتؤرخ له فنيا أو زمانيا أو مكانيا، فالأدب غاية والنقد وسيلة لتطوره.
- ❖ استطاع الشاعر والناقد أن ينقل هموم المتلقي للشعر والناقد؛ مبشرا بفكرة إنتاج فكر نقدي بإبداع شعري.
- ❖ تجاوز رمضان حمود التعصب واعتبر التجديد نزعة حتمية لا تلغي الإصلاح بل تكمله؛ وبذلك رسخ ثقافة الاختلاف.
- ❖ عمل الشاعر على شد القارئ وإثارة دهشته من خلال الاستعارات التي تشير إلى الواقعية والوجدانية في آن واحد.
- ❖ تصورات رمضان حمود تحمل شقين؛ الأول منها ظاهر، وعادة ما يكون تسلية القارئ ودفعه إلى عوالم أخرى حيث اللامألوف، أما الشق الخفي، فهو أنها ترمي إلى العديد من المسائل التي يمكن معالجتها أو ذكرها ضمنا، وذلك لعدم التمكن من معالجتها بطريقة مباشرة، وأسباب هذا تعدد الأبعاد؛ إصلاحية، وثقافية، وحضارية وحتى شخصية.
- ❖ يدعو "رمضان حمود" إلى المزاوجة بين النظرة الإصلاحية والأدبية بما يخدم المواقف النقدية.
- ❖ يشير الدكتور "محمد ناصر" إلى إمكانية عدّ رمضان حمود رائداً في ميدان النقد الأدبي بما فيه نقد الشعر، حيث عالج فيه عديد القضايا، من بينها ماهية الشعر والصدق الفني ورسالة الشعر وغيرها.
- ❖ كما أن "رمضان حمود" في اتجاهه عمل على مبدأ المزاوجة بين الرومانسية المتحررة، والواقعية الهادفة مع البصمة الإصلاحية والشخصية الأصيلة.
- ❖ يركز حمود في منهجه على ثلاثية تتمثل في العرض والنقد والاقتراح. وإن التكثيف الذي تحتويه آراء رمضان حمود تتطلب إعادة القراءة؛ كونها تؤهل الباحث إلى استنتاج التراكم المعرفي خاصة إلى فكرة السبق كجراحة متفردة.
- ❖ تجاوز رمضان حمود التوجه الإيديولوجي وركز على الإبداعي والفكري، ممّا جعلنا نقف عند الخصائص النوعية التي تميّز أسلوبه بالموضوعية.
- ❖ قد تولد المنطلقات الفكرية والنزعة النقدية من معطيات الخطاب الشعري.
- ❖ النتاج النقدي يجمع بين المصرح به والمستعار.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- صالح خرفي، حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- محمد ناصر، رمضان حمود، المؤسسة الوطنية، 1985.
- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث.
- رمضان حمود، بذور الحياة، دار نزهة الألباب، الجزائر، 2017 ط: 01.
- المجلة: الطبيب برغوث، الأديب بين الريادة والمواكبة، الثقافة، ع: 32.

الهوامش:

- (1) ينظر: صالح خرفي، حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 9.
- (2) عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، 2009، ص 77.
- (3) محمد ناصر، رمضان حمود، المؤسسة الوطنية، 1985، ط 2، ص 16.
- (4) مديحة عتيق، النقد العربي الحديث بين النظرية والتطبيق، دار ميم، ط 1، 2019م، ص 48.
- (5) رمضان حمود، بذور الحياة، دار نزهة الألباب، الجزائر، ط 1، 2017، ص 81.
- (6) صالح خرفي، حمود رمضان، ص 50.
- (7) ينظر: المرجع نفسه، ص 50.
- (8) ينظر: المرجع نفسه، ص 60.
- (9) رمضان حمود، بذور الحياة، ص 103.
- (10) الطبيب برغوث، الأديب بين الريادة والمواكبة، الثقافة، ع 32، ص 86.
- (11) محمد كناي، الشعر الإصلاحي الجزائري الحديث، رسالة ماجستير، 1993م، ص 283.
- (12) محمد ناصر، رمضان حمود، ص 17.